الفصل الخامس

المعجزة العلمية

التكوين الكونى

القرآن كتاب هداية ربانية يدعو إلى عقيدة دينية مُثلى تقوم على عبادة الله وتوحيده والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجن وما إلى ذلك من الأمور الغيبية مع ما يدعو إليه من روابط الأمة والأسرة والعدالة ومكارم الأخلاق.

ويضع الله صُنعه العظيم للكون أمام بصر الإنسان ليتأمل فى خلق الله وتدبيره لنظامه، من ذلك قوله جَل شأنه فى سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] وهو يقول إن فى خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والنجوم وخلق الأرض وما فيها من البحار والمحيطات والأنهار والجبال والأشجار والنباتات والحيوانات والطيور واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتفاوتهما طولا وقصرا بحسب فصول السنة ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ وعِبْرات وعظات لأصحاب العقول النيرة البصيرة.

وإن هذا التكوين العظيم للكون بسماواته السبع وما فيها من الكواكب والنجوم وبالأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وأشجار وثمار ونباتات وحيوانات وحشية وأنيسة وطيور شتى لأعظم دليل على عظم ملكوت الله وقدرته الهائلة. ومن ذلك قوله فى سورة فاطر:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠.

(٢) سورة فاطر الآيتان ٢٧ ، ٢٨.

والآيتان تصوِّران قدرة الله فى إنزاله من السماء ماء المطر مخرجا به من الأشجار ثمرات مختلفة الألوان من بيضاء وحمراء وصفراء وخضراء وسوداء كاختلاف ألوان الفاكهة، بل اختلاف ألوان الصنف الواحد مثل العنب والبلح. ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ ﴾ أى طرائق منها الأبيض والأحمر والأسود الغَرَابِيبُ أى شديد السواد - وبالمثل الناس فمنهم الأبيض والأحمر والأصفر والأسود والأسمر. وكذلك الدواب والأنعام على ألوان مختلفة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[1].

والله يقول فى الآيتين إنه بث جمال التلوين فى كل شىء على بساط الأرض: فى الثمار وطرق الجبال وفى الناس والدواب والأنعام، وقد جعل ذلك كله ما فى الأرض جميلا: البحار بمشاهدها وما فيها من لؤلؤ ومرجان، والحيوانات بمناظرها وألوانها المتنوعة، ويقول فى الأنعام أى الإبل والبقر والغنم بسورة النحل ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾[2] ثم يقول: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[3]. ونوَّه بخلقه الإنسان جميلاً فى سورة غافر: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[4] ويقول فى سورة الانفطار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[5] وجرَّءك على الكفر به وعصيانه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ ﴾[6] وأبدع خلقك ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أى جعل أعضاءك سَوِيَّةً بحيث تنتفع بها ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ أى جعل أعضاءك متناسبة فى نسق قويم ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[7] أى فى صورة

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤.
(٢) سورة النحل الآية ٦.
(٣) سورة النحل الآية ٨.
(٤) سورة غافر الآية ٦٤.
(٥) سورة الانفطار الآية ٦.
(٦) سورة الانفطار الآية ٧.
(٧) سورة الانفطار الآية ٨.

بديعة ركَّبك وخلقك.

وفى مقابلة الجمال الذى بثه فى الأرض وثمارها وطرقها وجميع مخلوقاتها جمال بثه فى السماء مكرِّرا فى سورة الأنبياء وغيرها أنها سَقْفٌ فى الكون العظيم مرفوع بيد الله يعمه فى كل مكان، ويقول جَلَّ شأنه فى سورة الملك: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[1]، أى بكواكب تضيئ ليلا ناشرة الحسن والجمال فى السماء ، ويقول الله تقدس اسمه فى سورة الحِجْر ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[2] والبروج منازل الشمس بعدد أشهر السنة، ثلاثة منها بروج الشتاء وهى الجدى والدلو والحوت، وثلاثة بروج الربيع، وهى الحمل والثور والجوزاء، وثلاثة بروج الصيف، وهى السرطان والأسد والسنبلة، وثلاثة بروج الخريف، وهى الميزان والعقرب والقوس. ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة مقسومة على بروج الشمس الاثنى عشر. وزيَّناها للناظرين، ليلا بما يسطع فيها من كواكب النجوم . ويقول الله فى سورة يس: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3]. عاد: صار، والعرجون: عود عِذق النخلة المقابل للعنقود فى شجر العنب، ويقول الله إن لكل من الشمس والقمر مدارا مستقلا، فهما يتعاقبان ويتناوبان وكل منهما ومن الكواكب يسبح فى فلكه ومداره.

ويكرر الله فى القرآن أنه قسم اليوم للإنسان بين نهار مضىء يعمل فيه

---

(١) سورة الملك الآية ٥.

(٢) سورة الحجر الآية ١٦.

(٣) سورة يس ٣٩ ، ٤٠.

لمعاشه وليل يستجم فيه للراحة والنوم، وبذلك أتم نعمته على الإنسان إذ جعل له النهار لمعاشه والليل لسكنه وراحته. ولو كانت الحياة نهاراً خالصاً لتعبت قوى الإنسان، ولو كانت ليلا خالصا لبطلت حركته، وإلى ذلك يشير الله بقوله في سورة القصص ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾[1] دائما ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾[2] ليلا ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِ ﴾ نهارا ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. والشمس وضياؤها نهاراً والقمر ونوره ليلاً آيتان من آيات الله تسيران بنظام كونى دقيق قدره الله بتدبيره وحكمته العظمى.

وإن مداومة التفكير فى خلق السماوات وما يلمع فيها من كواكب والأرض وما يجرى فيها من البحار والأنهار والإنسان وغير الإنسان، كل ذلك يملأ قلوب الناس إيمانا بالله وتمجيدا لصنعته الربانية وما بث فيها من نظم، ويقول الله فى سورة الرعد:

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3].

يشير الله إلى أن فى الأرض قطعا متجاورة، وكل قطعة تنبت ما لا تنبته

---

(١) سورة القصص الآية ٧١.

(٢) سورة القصص الآية ٧١ ، ٧٣.

(٣) سورة الرعد الآية ٤.

أختها اللاصقة بها من الزرع والثمرات و ﴿جَنَّٰتٌ﴾، أى بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ و ﴿وَزَرْعٌ﴾ من كل شكل ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ تخرج فيها النخلتان والثلاث من أصل واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ ومع ذلك أى مع خروجها من جذر واحد وشربها من ماء واحد تختلف ثمارها من نخلة إلى نخلة فى الطعم، وهى نعمة من نعم الله على الإنسان فيما يطعم من النوع الواحد مثل التمر، وإن طعومه وأنواعه لتعد بالعشرات. ويقول الله فى سورة الأنبياء:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1].

الرتق: التواصل والتلاحم بين شيئين أو فى الشىء ذاته، وبالمعنى الأول أن السماوات والأرض فى الخلق الأول كانتا جسمين متلاحمين، وبالمعنى الثانى كانت كل من السماوات والأرض جسما رَتْقًا أى أن أجزاءهما كانت متلاحمة، وفتقهما على الأول انفصالهما وبروز الكواكب من السماوات والأشجار وما إليها من الأرض، وعلى الثانى نفس المعنى وكان ذلك فى بدء خلقهما، وكرر الله فى القرآن أنه خلق سبع سماوات وقال فى سورة الطلاق إنه خلق فى الأرض مثلهنَّ، وربما كانت المثلية فى قوة الخلق.

وأنعم الله على الإنسان بنعمة الماء، وهى نعمة تعم جميع الكائنات، إذ لا يستطيع أى كائن أن يعيش بدونه، ومن آثار فتق الأرض أن جعلنا فيها جبالاً رواسى راسخة بها حتى لا تميد ولا تضطرب، ويقول تقدس اسمه ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أى طرقا واسعة يهتدون بها فى سيرهم ليلا ونهارا. ومن النعم

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٣٠ ، ٣١.

العظيمة نعمة الرياح التى يصرفها الله بقدرته التى تدفع الفلك فى البحار حاملة ما ينفع الناس من القوت والتجارة . وحاملة لهم إلى الحج والجهاد فى سبيل الله، وحاملة السحبَ بأمطارها إلى الأرض المجدبة.

ويكرر الله فى القرآن خلقه لآدم من تراب ومن صلصال من حمأ مسنون أى من طين أسود متغير الرائحة، وكرر خلق الإنسان وذريته وأنه من ماء مهين كما فى سورة المرسلات، ويقول فى سورة الطارق: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾[1] من الأب والأم ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ ﴾[2] أى ظهر الأب ﴿ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ موضع القلادة فى صدر المرأة. وصوَّر الله خلق الجنس الإنسانى تصويرا علميا بديعا فى آيات سورة ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ يقول تقدس اسمه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾[3] أى النوع الإنسانى ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إذ هو من نسل آدم المخلوق من تراب ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾[4] باعتبار أفراده ﴿ نُطْفَةً ﴾ من ماء الرجال مستقرا فى ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ هو رحم الأم ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾[5] أى أنها استحالت دما جامدا. وذكرها الله فى أول سورة نزلت على الرسول قائلا له: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[6]. ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ وهى القطعة من اللحم ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ ﴾ أى معظمها ﴿ عِظَٰمًا ﴾ تتكون داخلها ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ أى كل عظم وما يلزمه من اللحم ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾

---

(١) سورة الطارق الآيتان ٥ ، ٦.

(٢) سورة الطارق الآية ٧.

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٢.

(٤) سورة المؤمنون الآية ١٣.

(٥) سورة المؤمنون الآية ١٤.

(٦) سورة العلق الآيتان ١ ، ٢.

إذ نفخ فيه الروح فتهيأ بذلك للحياة والنمو. وعلماء الطب فى العصر الحاضر منبهرون لما تصور هذه الآيات من حياة الجنين وأطوارها منذ بدأت نشأته نطفة فى رحم الأم، فعلقة، فمضغة، فكسوة العظام لحما، فاستعداده لتنعم فيه الروح ويتهيأ للحياة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾. ويقول الله فى سورة الأعلى إنه ﴿ خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾[1] أى أنه يبدع المخلوقات ويجعل لها صورة سوية، تعدُّها لأداء وظيفتها أداء تاما، فاللسان فى الإنسان مثلا للنطق والتكلم والبصر للنظر والأذن للسمع، واليد للعون والبطش والرجل للمشى ، ولا تفاوت بين عضو وعضو فى الإنسان كأن تكون إحدى اليدين أو الرجلين أقصر من الأخرى. ومن التسوية النظام المطرد فى الأشياء كنظام الافلاك والكواكب ومسيرة الشمس نهارا والقمر ليلا ومثل نظام الفصول بشهورها فى السنة، ولا خلل أى خلل ولا عوج أى عوج فى الخلق لكائن فى الكون بل دائما اتساق بموازين عادلة عدلا دقيقا سديدا. و ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[2] فى البقاء إلى أجل معلوم، وقدر له أحوال بقائه ووجوده . وكل شئ يهتدى إلى ما فيه نفعه اختيارا أو تسخيرا. ويكرر الله فى القرآن أنه سخر كل ما فى الكون للإنسان قائلاً فى سورة الجاثية: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]. أى أنه ذلَّل لكم كل ما فى الكون لنفعكم: ما فى السماوات من كواكب مثل الشمس والقمر وما فى الأرض من بحار تجرى فيها وزرع وثمار ودواب أليفة وغير ذلك من المنافع سوى ما تهتدون إليه من القوانين الفلكية والبحرية والزراعية.

---

(١) سورة الأعلى الآية ٢.

(٢) سورة الطلاق الآية ٣.

(٣) سورة الجاثية الآية ١٣.

وكل ما ذكرت إنما هو أمثلة عرضها الله فى القرآن الكريم للدلالة من قريب أو من بعيد على الصنعة الإلهية للكون وقدرته العظمى، فهو قد خلق فيه السماوات وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والنجوم وأودع فى كل منها نظاما ثابتا لا يتبدل، وخلق الأرض وما فيها من المحيطات والبحار والأنهار والجبال والأشجار والنباتات والحيوانات الوحشية والأليفة والطيور ، وجعل لكل منها نظاماً ثابتاً لا يتغير. وخلق للناس النهار والليل ولكل منهما وظيفة للإنسان فالنهار للمعاش والليل للراحة والنوم مع تفاوتهما طولاً وقصراً بحسب فصول السنة. وكل شىء وكائن فى الوجود جعله مختلف الألوان بهجة لبصر الإنسان: الناس والدواب والأنعام والثمار والفواكه من كل لون وحتى الجماد والطرق فى الجبال . وزيَّن السماء بمصابيح الكواكب والنجوم، وجعل فيها بروجاً للشمس والقمر طوال العام. وقطع الأرض المتجاورة تنبت كل منها ما لا تنبته لصيقتها من الفاكهة والزروع، حتى لتخرج النخلتان من جذر واحد وتشربان من ماء واحد وتختلف ثمارهما فى الطعم ، وإن طعوم كل ثمر لتعد بالعشرات متاعا للإنسان. وجعل من الماء كل شىء حى من الناس والحيوانات والنباتات، وصرَّف الرياح فى كل وجه، ولتدفع الفلك فى البحار بما ينفع الناس من عروض التجارة وإلى حج بيت الله والجهاد فى سبيله ولدفع السحب بما تحمل من الأمطار إلى الأرض المجدبة فتستحيل زروعاً ومن كل الثمرات.

ويذكر الله فى القرآن مرارا خلقه لآدم من تراب ، إذ قال له كن فكان، وخلق ذريته من ماء دافق من الأبوين يخرج من بين الصلب والترائب، وصّور خلقه للأجنة فى رحم الأمهات متحولة من نطفة إلى عَلَقة إلى مُضغة، إلى تكون العظام بها، فكسوتها لحما، فتحولها خلقاً آخر بما ينفخ فيها من الروح وتهيئتها للحياة.

ويقول الله فى سورة الأعلى إنه ﴿خَلَقَ﴾[1] وأبدع كل ما فى الكون ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أى أعطاه هيأته وصورته ونظامه كما ترى فى أعضاء الإنسان وفى نظام مسيرة الشمس وفصول السنة. ويقول: إنه سخر وذلّل للإنسان كل ما فى الكون كما فى سورة الجاثية : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[2] فجميعها مسخرة للإنسان للانتفاع بها: ضياء الشمس ونور القمر والبحار والأنهار والجبال والوديان . ويضرب الله مثلا لتسخير البحر: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ (أى جوارىَ) فِيهِ﴾[3] فقد ذلّله الله لصيد السمك واستخراج اللؤلؤ والمرجان زينة للنساء ولركوبه من بلد إلى بلد للتجارة والحج والجهاد.

وهذه الأمثلة ونظائرها فى القرآن الكريم التى تصوّر صنعة الله الكونية وما أودعه فى الكون بسمائه وأرضه من نظم – فى رأينا – مدار إعجازه العلمى الربانى . ويندرج فى ذلك أنه نقل العرب من أمة بدوية لا تعرف القراءة والكتابة إلى أمة متحضرة لها علومها المتنوعة. وأول آية نزلت منه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[4] حين مثل جبريل للرسول فى غار حِراء، وقال له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ فقال له: ما أنا بقارئ فأخذه، فغطّه أى ضمه وعصره حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله وقال له: اقرأ فقال له ما أنا بقارئ، فأخذه فغطّه الثانية حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، وقال له : اقرأ فقال : ما أنا بقارئ، فأخذه، فغطّه الثالثة حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال له:

---

(١) سورة الأعلى الآية ٢.

(٢) سورة الجاثية الآية ١٣.

(٣) سورة النحل الآية ١٤.

(٤) سورة العلق الآية ١.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

ولم يكن الرسول قبل ذلك قارئا، ولذلك كرر عليه جبريل الأمر بالقراءة، إذ سيوحى إليه كتابا عن طريقه يقرؤه للناس. وإن كان لا يستطيع كتابته ﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ أى مصاحبا قراءتك بالإيمان بوحدانية ربك ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ أى القادر على الخلق وحده لا شريك له ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ أى من دم غليظ تحولت إليه النطفة فى بدء تكونه جنينا.

وجبريل يعيد عليه الأمر بالقراءة ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ أى الذى أسبغ عليك كرمه العظيم بما يوحى إليك ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾. والله يمتنُّ عليه وعلى أمته بما سيمنحها من العلم وأداته من القلم، وهو استهلال من الله العظيم افتتح به القرآن حثا لأمته على تحصيله والإكباب عليه والتفوق فيه. وفى سورة القلم يقسم الله به وبالكتابة تكريما لهما وتشريفا وإعزازا لما يكتب بهما من العلم والدين. ويحث الله المسلمين فى القرآن الكريم على التزود بالعلم فى آيات كثيرة، ومن قوله لرسوله فى سورة طه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[2] وهو أمر له ولأمته، إذ كل أمر موجه إليه فى القرآن الكريم موجه أيضاً إلى جميع المسلمين حثًّا لهم للعكوف على طلب العلم والمزيد منه، يقول لهم فى سورة الإسراء: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3] ويأمر الرسول أن يقول لهم فى سورة الزمر: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4] أى هل يستوى العلماء والجهال

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ، ٥.

(٢) سورة طه الآية ١١٤.

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٤) سورة الزمر الآية ٩.

الذين يخبطون خبط عشواء فى إدراك الأمور والأشياء ، وينوِّه القرآن مرارا وتكرارا بالعلماء فى مثل قوله : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[1] ونوه بهم تنويها عظيما فى سورة آل عمران إذ ضمَّهم إليه وإلى الملائكة فى الشهادة بوحدانيته والتعظيم لألوهيته قائلا : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[2]. أى العدل. ومما يسمو بالعلم والعلماء عند الله ما جاء فى أوائل سورة البقرة من حوار بين الله – تقدس اسمه – وملائكته فى جعله آدم خليفة له فى الأرض يعمرها، فقالوا له متعجبين ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[3] فإن مَن طبيعته الإفساد وسفك الدماء لا يصلح – فى رأيهم – لتعمير الأرض وهم أحق منهم بالاستخلاف، فقال الله لهم: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مما لم يحط به علمكم ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[4] إما بالتلقين أو بالالهام أو بعلم ضرورى فى الذهن. وعرض الله مسميات الأسماء على الملائكة، وقال لهم ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فعجزوا، فقال الله لآدم: ﴿ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾[5]، فأنبأهم بها فقال الله لهم ﴿ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ ﴾[6] سجود تعظيم فسجدوا. وبذلك سجدت الملائكة : المخلوقات النورانية التى تسبح دائما بحمد الله لآدم، وكأن منزلة علم الإنسان بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة وتقديسهم لله. وهو إكبار

---

(١) سورة المجادلة الآية ١١.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٤) سورة البقرة الآية ٣١.

(٥) سورة البقرة الآية ٣٣.

(٦) سورة البقرة الآية ٣٤.

من الله للعالم لا يماثله إكبار . ورغّب الإسلام مرارا فى طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم.

وهذا التحويل الواسع للأمة بإخراجها من عالم الجهالة إلى عالم العلم بفضل عرض القرآن خلق الله للكون وتدبيره لكل شىء فى سمائه وأرضه، وبفضل حث الإنسان على العلم وجعله واجبا عليه بل فريضة يؤديها كما يؤدى عبادة ربه. هذا التحويل العظيم هو – فى رأينا – الإعجاز العلمى الذى أراده الله لعباده المسلمين وبثه فى عقيدتهم، واستحال به الرسول إلى معلم كبير، يعلم الصحابة علوم تفسير القرآن والحديث والفقه، واستحالت المدينة فى عهد الرسول إلى دار علم كبيرة، يعلِّم فيها الرسول معانى آيات القرآن وفروض الشريعة الإسلامية. ونرى الله فى سورة التوبة يدعو المسلمين ليتجمع نفر منهم حول الرسول ليأخذوا عنه أوامر الدين ونواهيه قائلا: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾[1] وهو استنفار إلهى عظيم لتعلم شريعة الإسلام وقرآنها الربانى والتفقه فى الدين والعلم بالأحكام الشرعية عن طريق الاجتهاد، وكأن الله جعله أصلا من أصول العلم الإسلامى، وأخذ به الرسول وصحابته على نحو ما يروى عن معاذ بن جبل حين بعثه الرسول إلى اليمن إذ قال له: بم تقضى بين الناس، قال بكتاب الله قال: فإن لم تجد قال أقضى بما قضى به رسولُ الله قال فإن لم تجد. قال أجتهد فى رأيى لا آلو أى لا أقصر. قال الرسول: الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى الله. وليس معاذ وحده الذى كان يستطيع الاجتهاد، فقد عرفت به جماعة من الصحابة كانوا يستطيعون الاجتهاد فى أمور الدين أشار إليهم ربُّ العزة فى آية سورة النساء إذ بادر

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢.

بعض المنافقين باشاعة خبر كاذب عن سريَّة حربية فقال الله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾[1]، أى كبارهم (العلمه الذين يستنبطونه منهم). وهذه الآية مثل سابقتها تؤكد أنه وجد بين الصحابة – بفضل القرآن وما فيه من دعوة إلى التأمل فى صنعة الكون وتدبير الله المحكم له وحث المسلمين على التزود بالعلم – جماعة من الفقهاء كانت تفقه القرآن وشريعته وتحسن الاستنباط والاجتهاد فى أمور الدين.

وهذا – فى رأينا – هو الإعجاز العلمى للقرآن أنه عرض خلق الله للكون وما فيه من السماء والأرض وكل ما فيهما من الكواكب والكائنات. وتدبير الله لهما تدبيرا محكما ليحاول المسلمون معرفة نظام هذا الخلق العجيب الدال على قدرة الله ، وقرن الله ذلك بحثٍّ العرب الذين كانوا لايزالون فى طور الأمية إلى التحول إلى طور حضارى أساسه العلم، وتم لله ذلك فى عهد الرسول إذ صارت بين الصحابة طائفة من الفقهاء تحسن الفتوى والاستنباط عن طريق الاجتهاد .

وهذا هو الإعجاز العلمى الواضح للقرآن، أما ما ذكره بعض السابقين والمعاصرين من أن إعجاز القرآن العلمى يرجع إلى حمله للعلوم الدينية وغير الدينية، ومازالوا يتوسعون فى عد العلوم حتى جعلها أبو بكر بن العربى فى كتابه قانون التأويل سبعة وسبعين ألفا وأربعمائة وخمسين بعدد ألفاظ القرآن مضروبة فى أربعة إذ لكل لفظ ظهر وبطن وحد ومطلع، وهى مبالغة واضحة.

---

(١) سورة النساء الآية ٨٣.

العلوم المستنبطة من القرآن: الغزالى

ربما كان أول من توسع فى الحديث عن الإعجاز العلمى فى القرآن حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى، ويقول الدكتور حسين نصار فى كتابه "الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم إنه تعرض للعلوم فى القرآن فى ثلاثة من كتبه، هى جواهر القرآن، وإحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والأول أهمها فيما يختص بالعلوم المستنبطة من الذكر الحكيم ، ويقول الغزالى فى أوائله إن القرآن هو البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما تتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها. ونمضى معه فى الكتاب، فيتحدث عن العلوم الدينية وأن منها صدفاً وجواهر والصدف خمسة علوم هى علم اللغة وعلم النحو وعلم القراءات وعلم مخارج الحروف وعلم التجويد وعلم معانيه (وهو علم التفسير). والجواهر علوم اللباب وهى ثلاثة : علم قصص القرآن وما يتعلق بالأنبياء والمرسلين وعلم محاجَّة الكفار ومجادلتهم ومنه يتشعب علم الكلام ثم علم الفقه الذى تعم إليه الحاجة فى صلاح الدنيا والآخرة وعلوم التصوف.

ثم يذكر الغزالى أن وراء هذه العلوم الدينية علوما كثيرة كعلم الطب، وعلم النجوم وهيئة العالم (ويسمى علم الفلك) وعلم هيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، وعلم السحر والطلسمات وغير ذلك. ثم يقول الغزالى: ووراء ما عددته من العلوم علوم أخرى، لا يخلو العالم ممن يعرفها، ولعله يريد العلوم الطبيعية والرياضية، ثم يذكر أنه توجد إضافة من العلوم لم تخرج إلى الوجود وفى مقدرة الإنسان الوصول إليها، وأخرى كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن فلا يوجد فى هذه الأعصار على بسيط الأرض مَنْ يعرفها، وأيضا علوم أخرى

ليس في قوة البشر أصلا إدراكها والإحاطة بها ويحظى بها بعض الملائكة المقربين. وإن الإمكان في حق الآدمي محدود ، والإمكان في حق الملك محدود إلى غاية في الكمال، كما أنه في حق البهيمة محدود إلى غاية في النقصان، أما الله فعلمه لا يتناهى، ويفارق علمنا علم الله في شيئين: أحدهما انتفاء النهاية عن علم الله والآخر أن علمنا يكون بالإمكان وجوده أما علم الله فهو دائما حاضر موجود . ثم ينتهي في كل هذه العلوم الموجودة وغير الموجودة إلى أنها ليست خارجة عن القرآن فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله وهو بحر الأفعال، وذكر أن بحر الله لاساحل له، ولو أن بحرا كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد. وضرب مثلا لبحر الأفعال هو الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم في سورة الشعراء: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1] فهذا الفعل الواحد من المرض والشفاء لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه. وضرب الإمام الغزالي مثلا ثانيا قائلا: لا يعرف إنسان كمال معنى قول الله في سورة الانفطار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[2] إلا مَن عرف علم تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها. ثم يقول: وفي القرآن مجامع علوم الأولين والآخرين.

والإمام الغزالي يبالغ مبالغة شديدة حين يقول إن فعل المرض والشفاء في آية سورة الشعراء لا يعرفه إلا من عرف علم الطب، ومطلق معرفة الطب في الشفاء

---

(١) سورة الشعراء الآية ٨٠.

(٢) سورة الانفطار الآيات ٦ ، ٨.

والمرض ليست كافية بل لابد من معرفة الطب بكماله ، وكأن إبراهيم خليل الله نطق بقوله عن ربه ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ دون أن يفهمها حق الفهم لأنه لم يدرس الطب فضلا عن دراسته بكماله، والناس جميعا يعرفون المرض والشفاء إما فى أنفسهم وإما فى أقربائهم. وكما بالغ الغزالى فى فهم آية سورة الشعراء بالغ فى فهم آيات خلق الإنسان فى سورة الانفطار! والله يقول فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ ما جرَّأك على عصيان ربك الذى خلقك وأبدعك وجعل أعضاءك سوِّية تؤدى وظائفها أداء كاملا ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ أى أحسن تسوية أعضائك ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ ﴾ أى فى صورة بديعة ﴿ رَكَّبَكَ ﴾ والله يمتن على الإنسان العاصى بأنه خلقه وكتب له الحياة التى ينعم بها وسوَّى له فيها أعضاءه وأحسن تسويتها وأتم خلقه فى صورة بديعة ولم يعبده حق عبادته. وكل ذلك لا صلة له أى صلة بما ذكره الإمام الغزالى من أن أحدا لا يعرف كمال معنى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ إلا من عرف علم تشريح الأعضاء من الإنسان لا ظاهرا فقط بل باطنا أيضا، ولا يكفى من يريد فهم الآيات – فى رأى الإمام الغزالى – أن يفهم علم التشريح للأعضاء فهما عاما بل لابد من معرفته معرفة باطنة، ولابد أن يعرف عددها وأنواعها وحكمتها (فى خلقها) ومنافعها. وكل ذلك – كما رأينا – لا صلة له بفهم الآيات فهما سديدا، إذ لا علاقة لها بعلم التشريح لا من قريب ولا من بعيد.

وكان – قبل الإمام الغزالى – من نادوا بالإعجاز العلمى للقرآن ، كما يقول الدكتور حسين نصار مثل ابن سراقة المتوفى فى سنة ٤١٥ للهجرة والماوردى المتوفى فى سنة ٤٥٠ للهجرة غير أن الإمام الغزالى توسع فيه بكتابيه إحياء

العلوم وتهافت الفلاسفة وخصَّه بكتابه : جواهر القرآن وهو فيلسوف إسلامى متصوف ومن كبار أعلام الإسلام، ولذلك كان اعتناقه لنظرية الإعجاز العلمى فى القرآن من أهم أسباب اعتناق كثير من علمائنا السابقين لها شرقا وغربا. وقد أحصاهم الدكتور حسين نصار فى كتابه "الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم" ومن أهمهم قديما القاضى عياض فى المملكة المغربية (ت ٥٤٤هـ) القائل فى كتابه الشفاء "إن أحد وجوه إعجاز القرآن جمعه لعلوم ومعارف لم يعهدها العرب". ومن أهمهم حديثا محمد بن احمد الطبيب الإسكندرانى (١٨٨٩م) وقد نادى فى كتابين له هما: كتاب كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية، وكتاب تبيان الأسرار الربانية فى النبات والمعادن والخواص الحيوانية: أن إعجاز القرآن يحوى كل هذه العلوم بفروعها ونظرياتها واكتشافاتها الحديثة قبل علمها البشرى. وذكر عبد الرحمن بن أحمد الكواكبى (ت ١٩٠٣م) فى كتابه: طبائع الاستبداد أن المدقق يجد فى القرآن أكثر مما كشفه العلم فى القرون الأخيرة من مسائل عُزيت لكاشفيها وهى فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا، يقول: ولم تبق مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة جديدة للقرآن . ويتحدث عبد الرزاق نوفل عن إعجاز القرآن العلمى فى كتبه: "الله والعلم الحديث" و "القرآن والعلم الحديث" و "بين الدين والعلم". ومثله محمد جمال الدين الفندى فى كتابه: "من روائع الإعجاز" وقد عرض فيه قضايا علمية متعددة.

بعد الغزالى: الفخر الرازى – ابن أبى الفضل المرسى – طنطاوى جوهرى

كل ما كتب علماؤنا عن قضايا الإعجاز العلمى فى القرآن امتداد –فى رأيى – لنظرية الغزالى التى عرضناها فيما أسلفنا . ويحصى الدكتور نصار فى كتابه: الإعجاز العلمى فى القرآن مَنْ نادوا بهذا التفسير، وفى مقدمتهم فخر الدين محمد بن عمر الرازى ـ (ت ٦٠٦هـ/١٢١٠م) فى تفسيره للقرآن المسمى مفاتيح الغيب، وهو أقدم تفسير عُنى مؤلفه بتفسير القرآن تفسيرا علميا، واتسع فى تفسيره اتساعا شديدا، وخاصة فى الوصل بين الإشارات الكونية فى القرآن وعلم الهيئة، وهو يعلن ذلك فى تفسيره إذ نراه إزاء أكثر الإشارات الكونية يتوقف مصرحا بأنه سيذكر نبذة من علم الهيئة، ولو أن شخصا جمع كل ما كتبه فى نُبَذه لخرج له كتاب بديع فى علم الهيئة أو فى علم الفلك.

ومع أنه كان ينكر نظرية الإعجاز العلمى للقرآن التى وضعها الغزالى ويراه فى بلاغته وفصاحته عديم النظير كما فى الصفحة ٣٣٢ وما بعدها من جزئه الأول فى طبعته الأولى الضخمة، مع ذلك شُغف شغفا شديدا بتفسير القرآن تفسيرا علميا واتسع فيه اتساعا واضحا بإقحامه عليه أفكار الفلاسفة والمتكلمين من كل الأصناف والفقهاء وعلماء اللغة وأصحاب الملل والنحل والمعتقدات غير الصحيحة الفاسدة. وكل ذلك يعرضه ويناقشه، ويجمع منه موسوعة ضخمة، ويدل على ضخامتها أنها طبعت حديثا فى اثنين وثلاثين جزءًا. واعترض على صنيعه الموسوعى بعض معاصريه متعجبا من إدماج علم الهيئة فى تفسيره ورد عليهم قائلا: ربما قال بعض الجهال والحمقى: إنك أكثرت فى تفسير كتاب الله من علم الهيئة، ورد عليه قائلا له: إنك لو تأملت فى كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته من وجوه:

الأول: أن الله ملأ القرآن بالاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار، وذكر ذلك في أكثر السور. فلو لم يكن البحث عن هذه الأحوال للتأمل فيها لما ملأ كتابه بها.

الثاني: أن الله قال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[1] وهو حثٌّ على التأمل في كيف بناها.

الثالث: أن الله قال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[2] فبيَّن أن عجائب الخلق وبدائع الفطرة في أجرام السماوات أكثر وأعظم وأكمل مما في أبدان الناس.

الرابع: أن الله مدح من يتفكرون في خلق السماوات والأرض قائلا: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾[3] ولو كان التفكر في خلقها ممنوعا لما مدحه.

الخامس: أن من اعتقد في دقائق الخلق كان اعتقاده أكمل وأوفى في معرفة عظمة الله وجلاله.

ثم يقول: إن من اعتقد أن للكون صانعا صنعه ومحدثا خلقه كان في زمرة المستدلين، ومن ضم إلى ذلك البحث عن أحوال العالم العلوى والسفلى كثرت دلالاته بما يقف عليه من أسرار الخلق الإلهى.

ونسلم له بأن في القرآن إشارات كونية، ووجودها فيه لا يقتضى نقل علم الهيئة بحذافيره إلى التفسير بحيث ننسى التفسير ونعيش في علم الهيئة طويلا أو في غيره من أحوال الأرض وتعاقب الليل والنهار ورؤية الفلك طافية على

---

(١) سورة ق الآية ٦.

(٢) سورة غافر الآية ٥٧.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩١.

سطح الماء بما ينفع الناس وما ينزل الله من السماء من ماء يحيى الأرض بمختلف الزروع وما بث فيها من الدواب أليفة ووحشية وما يصرِّف فيها من الرياح والسحاب المسخر لحمل المطر إلى الأرض المجدبة كما قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١).

وإذا رجعنا إلى الفخر الرازى فى تفسير الآية وجدناه يكتب فيها عشرين صفحة من القطع الكبير إذ يدفعه ذكر خلق السماوات إلى الحديث عن ترتيب الأفلاك ومعرفتها ومقادير حركاتها ودلالتها على الصانع فى عشر صفحات. وبذلك خرج الرازى بالآية عن التفكير فى بدائع صنع الله فى الكون إلى عرض جانب من علم الهيئة، ويتركه إلى بيان أحوال الأرض لمجرد ذكرها فى الآية فيكتب فيها ثلاث صفحات كبيرة، ويتسع فى الحديث عن الآيات العجيبة بعدها ودلالتها على صانعها. ونفاجأ بعد تفسير الآية لنقله فصلين من فصول التصوف فى عشرين صفحة: فصل عن معنى محبة الله وفصل عن معنى الشوق إلى الله.

ولكى يتضح لنا تفسير الفخر الرازى وما يعرض فيه من موضوعات تخرج به إلى موسوعة أو دائرة معارف نستعرض موضوعات الجزء الأول من تفسيره الذى يمتد إلى ٧٥٦ صفحة ويبتدئ بمقدمات تعرض مباحث لغوية فى الفعل والاسم والمعرب والمبنى حتى ص ٤٥ ويذكر مسائل فقهية متصلة بالاستعاذة ومباحث عقلية ترتبط بها، ويفيض فى الأسماء والصفات المتصلة بالذات العلية.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤.

وأخيرًا فى ص ١٢٠ نصل إلى آية بسم الله الرحمن الرحيم ونظل فى مقدمات حتى نصل إلى تفسير سورة الفاتحة فى ص ١٦٩ حتى نهايتها فى ص ٢٠٣ ويعود إلى مباحث فرعية تتصل بسورة الفاتحة حتى ص ٢٢٦ حيث يبدأ سورة البقرة وتفسيرها ، وفى رأينا أن كل المباحث المجلوبة قبل تفسير سورة الفاتحة وبعدها ليس القارئ فى حاجة ضرورية إليها.

ونمضى مع الفخر الرازى فى تفسير سورة البقرة من ص ٢٢٦ إلى ٧٥٦ إذ تم تفسير الجزء الأول من السورة فى ٥٣٠ صفحة والصفحات ليس فى التفسير منها إلا صحف قليلة، وشغلت الصحف الكثيرة الباقية بمباحث شتى مثل المهدى المنتظر وحقيقته، وهل كفر الكافر الأصلى أقبح أو كفر المنافق؟ وهل المعدوم شىء، وبيان علم التوحيد وأنه أشرف العلوم، ومنافع الأرض وصفاتها، وفضائل السماء وهل السماء أفضل أو الأرض؟ ومنافع الأرض، ونبذة فى علم الهيئة وفصل عن العلم وفضله، والاختلاف فى عصمة الأنبياء ، وفى جواز رؤية الله، وفى حصول الشفاعة لأهل الكبائر، والوعيد عند المرجئة والمعتزلة وأهل السنة، والاختلاف فى جواز النسخ للآيات القرآنية وعدم جوازه، والحسد ومراتبه وأسبابه ودواؤه. وتفسير الفخر الرازى بذلك يحجب عنا الغرض الأساسى من تفسير كتاب الله وهو الهداية الربانية والموعظة والإرشاد. وهو ليس كتاب علوم ومعارف من كل لون، حتى قال بعض القدماء متندرا على الفخر الرازى إن تفسيره فيه كل شىء ما عدا التفسير، وكأنما كان الفخر يظن أنه إنما يطبق قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[1] وقوله لرسوله فى سورة النحل ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[2] وأن كلمة شىء فى الآيتين تشمل جميع

(١) سورة الأنعام الآية ٣٨.

(٢) سورة النحل الآية ٨٩.

العلوم والمعارف، والله – جل شأنه – إنما يريد بها: شيء في الدين أي في العقيدة وما يتصل بها من عبادات الله ومعاملات الناس والأخلاق، ومن صفات الله والملائكة والآخرة وغير ذلك من الأمور الغيبية. وحقا ذُكرت في القرآن إشارات كونية كثيرة، وهي لم تذكر في القرآن لتبليغ بعض الحقائق الكونية أو العلمية، إنما ذكرت للوصول إلى الهداية الربانية عن طريق فهمها ومعرفة دلالتها على قدرة الله ووحدانيته.

ونمضي في القرنين السادس والسابع للهجرة، ونلتقي بابن أبي الفضل المرسي (٥٧٠ – ٦٥٥هـ) وله تفسير علمي سقط من يد الزمن، غير أن السيوطي احتفظ بمقدمته له في فصل إعجاز القرآن من كتابه: الاتقان وهو يستهلها بقوله: "جمع القرآن علوم الأولين والآخرين" ويذكر أن الله أحاط بها علما ثم رسوله ثم الصحابة وأسلافهم ثم التابعون بإحسان ثم المتأخرون وتوزعوا علومه وفنونه ونوعوها، ويذكرها تفصيلا، بادئا بفن القراءات التي عُني أصحابها بضبط ألفاظ القرآن ومعرفة مخارج حروفه وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه من غير تعرض لمعانيه وما أودع فيه، فسمُّوا القرَّاء. واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى ووسعوا الكلام في الأفعال والأسماء وتوابعهما وجميع ما يتعلق بهما. وعني المفسرون بألفاظ القرآن وبيان معانيه. وعني الأصوليون في علم أصول الدين بما فيه من الأدلة العقلية، وتفرع عن هذا العلم علم أصول الفقه. وأحكم الفقهاء النظر في الحلال والحرام وسائر الأحكام بعلم الفقه. وعني المؤرخون والقُصَّاص بما فيه من قصص الأمم السالفة. وعني الوعَّاظ بما فيه من وعظ، ومفسرو الأحلام بما فيه من رُؤىً كما في سورة يوسف . وعني قوم بما فيه من سهام المواريث، وهم أصحاب علم الفرائض، وآخرون بما فيه من اختلاف الليل والنهار والكواكب وهم أصحاب علم المواقيت، وعني البلاغيون بما فيه من علوم المعاني والبيان والبديع، والمتصوفة بما فيه من ألفاظ وإشارات.

ثم يقول ابن أبى الفضل المرسى: وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك. أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة، وجُمع ذلك فى آية واحدة هى قوله تعالى فى سورة الفرقان مادحا المؤمنين الجديرين بالمدح بأنهم ﴿ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾[1] أى لم يفرطوا فى الإنفاق ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ أى ولم يبخلوا ﴿ وَكَانَ ﴾ الإنفاق ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أى معتدلا. وليس فى كلمة قوام بالآية أى صلة بالطب .

واستشهد ابن أبى الفضل بآية أخرى هى آية سورة النحل فى وصف عسل النحل ﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[2] وكأن مجرد ذكر عسل النحل وأنه شفاء للناس ذكر للطب بجميع علله وأدوائه. وذكرَ الجدل أو علم الجدل وهو حقا كثير فى القرآن واستشهد عليه بمحاجَّة إبراهيم للملك فى سورة البقرة إذ قال إبراهيم: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ [الملك]: أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾[3] أى تحيَّر ولم ينطق بكلمة. وذكر ابن أبى الفضل علم الهيئة، وحقا فى القرآن إشارات كونية كثيرة ولكن ينبغى أن لا تنتهز الفرصة لنقل علم الهيئة إلى تفسير القرآن كما صنع الفخر الرازى.

واستشهد ابن أبى الفضل لعلم الهندسة فى القرآن بآية سورة المرسلات التى تقال للمشركين يوم القيامة توبيخا لهم: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾[4] أى

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل الآية ٦٩.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٨.

(٤) سورة المرسلات الآية ٣٠.

امضوا إلى ظل لجهنم أى إلى دخان لها يتشعّب شعبا ثلاثاً. وكأن كلمة (ثلاث شعب) تحمل علم الهندسة، وهى مبالغة من أبى الفضل تخرج عن تصور العقل. وذكر لعلم الجبر والمقابلة فى القرآن الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور مثل (آلم) فى أول سورة البقرة و (المَص) فى أول سورة الأعراف و (الَر) فى أول سورة يونس، وأمثالها فى السور القرآنية، ويقول إن فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة وتاريخ بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا. وقد اختلف مفسرو القرآن فى دلالتها، وأولى الآراء أنها مما اختص الله بعلمه، ومن الخطأ الربط بينها وبين علم الجبر . وذكر ابن أبى الفضل أخيرا علم النجامة أو علم التنجيم الذى كان يدعيه الكهان فى الجاهلية بنظرهم فى النجوم ونسب إلى ابن عباس أنه فسر به كلمة علم فى قوله تعالى بسورة الأحقاف متحديا المشركين: ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾[1] أى القرآن ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أى أو بقية من أى علم لا علم النجامة وحده، فضلا عن أن الله – جل جلاله – لا يعقل أن يسمى تنجيم كلمات الكاذب علما.

ويضيف ابن أبى الفضل أصول صنائع وآلات فى القرآن لم يذكرها أحد غيره لمجرد مجىء كلمة تشير إلى عمل، فيقول القرآن ذكر صناعتها مثل قوله تعالى عن آدم وحواء وهما فى الجنة: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾[2] أى يخيطان فقال ذكر القرآن صناعة الخياطة، وإذا قال الله: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾[3] قال إن القرآن ذكر صناعة البناء، وإذا قال تعالى: ﴿ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[4]

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٢.

(٣) سورة الشمس الآية ٥.

(٤) سورة المؤمنون الآية ٢٧.

قال إن القرآن ذكر صناعة النجارة ، وإذا قال تعالى: ﴿ نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾[1] قال: القرآن ذكر صناعة الغزل، وإذا قال الله ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾[2] قال إن القرآن ذكر صناعة النسج . وبهذا القياس المخطئ فى الفهم والتصور ذكر ابن أبى الفضل أن فى القرآن صناعة الحدادة وصناعة الحلى والزّجاجة أى صناعة الزجاج والملاحة لذكر السفينة وصناعة الكتابة لذكر القلم، والخبز والطبخ والصياغة والجزارة إلى غير ذلك من صناعات، حتى لكأن القرآن سجل لجميع الصناعات، بل إنه يتسع أكثر من ذلك فى تعميماته قائلا إن القرآن فيه جميع ما وقع ويقع فى الكائنات مستدلا على ذلك بآية سورة الأنعام: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[3] ولا يراد بشىء جميع الأشياء من الصناعات والعلوم كما ظن بل من أمور الدين وتعاليمه، مما يرتبط مباشرة بالعقيدة وتوحيد الله وعبادته ومكارم الأخلاق والتعامل مع الناس بالعدل، وهو ليس كتاب علم ولا كتاب صناعات، إنما هو كتاب هداية ربانية وتشريع قويم.

وأنتقل إلى الحديث عن تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى (١٨٧٠ - ١٩٤٠م) أهم كتب التفسير العلمى للقرآن بعد تفسير الفخر الرازى الذى سماه: التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم. وهو يضع فى اسمه كلمة العلوم مع القرآن ويقول فى تقديمه له: "وضعت فى هذا التفسير ما يحتاجه المسلم من الأحكام أى فى الشريعة والعلاقات فى الأسرة والمجتمع ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية وعجائب الكون، وأثبتُّ فيه غرائبَ العلوم وعجائب الخلق مما يشوِّق المسلمين

---

(١) سورة النحل الآية ٩٢.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤١.

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٨.

والمسلمات إلى الوقوف على حقائق معانى الآيات البينات فى الحيوان والنبات والأرض والسماوات" والتفسير فى ٢٥ مجلدا.

ونمضى مع الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره لسورة البقرة فلا نكاد نرى التفسير إذ حجبه عنا بما سماه بدائع العلم، وبآراء اسبنسر فى العلوم الطبيعية والدين ، وتفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأوثان وعبادة الصابئة للملائكة فالكواكب فالأصنام، فقدماء المصريين والكواكب، فدين التثليث ، فالآلهة الهندية الثلاث، وهم برهما وفشنو وسيفا ومعناها الخالق والحافظ والمهلك، والتثليث عند الفرس وقدماء اليونان، وفتوى علماء بخارى لأميرها بتحريم الحرب بالمدافع وضياع البلاد، وكيف يقول الله فى السورة إنه خلق لنا ما فى الأرض جميعا والمرجان فى البحار وغيره فى يد الفرنجة، وكيفية خلق العالم فى الآراء الحديثة، وأبعاد السيارات الثمانية: فى السيارات العلوية والسيارات السفلية، والنجوم الثوابت ومنها ما يصل نوره إلينا فى ألف سنة نورية، وأقدار الكواكب وعدد نجومها، ويبلغ مجموعها ٢٢٤ مليونا من النجوم. ويتوسع فى الاقتباس من علم الهيئة مثل الفخر الرازى . ويقدم بحثا ضافيا فى الحكمة العملية والعلمية، ويذكر اجتماع خصائص الحيوان فى الإنسان: الفأر والهوام والأسد والأرنب والديك والنمر والحمام والثعلب والغنم والغزال والجمل وما يقرب من أربعين حيوانا، وتفصيل الكلام على الملائكة وآراء أهل الديانات والحكماء فيهم ثم رأى علماء الهند، وبيان علم الأخلاق، وحديث طويل عن إنجيل برنابا الذى لم تعتمده الكنيسة وما فيه من البشارة بالرسول ، ونفى صلب المسيح وغير ذلك من المسائل. وهناك مبحث متسع عن شفاعة الرسول للمسلمين وإجماع الأمة عليها، ويسوق المؤلف محاورة له مع سيدة روسية فى صلب المسيح وفدائه لأتباعه، وقصة سيدة روسية مع راهب فى دير بطور سيناء. ويطيل فى الحديث عن علم تحضير الأرواح وقصة هاروت وماروت والسحر وسحر الكلدانيين وغيره من أنواع السحر، والتنويم المغناطيسى وطرقه ودرجاته.

وعلى هذا النحو بلغتُ حتى الآن فى تصفح فهرس سورة البقرة مائة آية، ولم أحظ فيها بتوسع فى فهم مفرداتها ومعانيها وبيان تلقى الناس للقرآن وأنهم ينقسمون إلى أربع فرق، فرقة المسلمين المؤمنين بالغيب، وقد استهلت السورة بذكرهم وأنهم يؤمنون بالقرآن والكتب السماوية السابقة، وهم على هدى من ربهم. وتلتهم السورة بفرقة المشركين الذين لا يستجيبون للرسول لتصميمهم على الكفر وتماديهم وأتبعت السورة الفرقتين بفرقة المنافقين المظهرين للإيمان المبطنين للكفر المخادعين لله وللمؤمنين المفسدين فى الأرض الضالين، ويمثلهم الله بمن استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها طُفئت، فصار فى ظلام شديد لا يهتدى فيه إلى شئ. ويدعو الله الناس إلى عبادة ربهم الذى خلقهم وأنعم عليهم بنعم لا تحصى.

ويتحدث الله عن نعمته على الفرق الثلاث بخلق أبيهم آدم وتفضيله على الملائكة بميزة العلم وبيان كيف نشأت العداوة بينه وبين إبليس واستمرت بين ذريتيهما. ويأخذ فى الحديث عن الفرقة الرابعة وهى أهل الكتاب من اليهود، ويتسع فى ذكر نعمه عليهم وإنقاذه لهم من فرعون بمصر وقومه وإغراقه فى البحر الأحمر ونزولهم فى طور سيناء وذهاب موسى إلى ربه طوال أربعين يوما لحمل التوراة وعبادتهم للعجل أبيس وعفوه عنهم، وأحداثهم مع موسى فى سيناء، ثم موقفهم من الإسلام عداوة وحسدا وتحريفهم لنصوص التوراة ونقضهم لعهد الله وميثاقه وعداوتهم لجبريل لنزوله بالقرآن على الرسول، واتبعوا ما تتلو الشياطين من السحر .

وتلك هى موضوعات الآيات المائة فى أول سورة البقرة. وكان حريا بالشيخ طنطاوى جوهرى أن يتسع فى تفسيرها، ولكنه عدل عن ذلك واهتم بالمباحث التى ذكرناها والتى تحجب عنا الآيات بحيث أصبح تفسيره العلمى مثل تفسير الفخر الرازى الذى قالوا فيه إنه يحمل كل شىء إلا التفسير.

وفى الحق أن تفسير الفخر الرازى القديم وتفسير الشيخ طنطاوى جوهرى الحديث يقنعاننا بأن التفسير العلمى للقرآن عند أسلافنا يخرجنا من دائرة القرآن إلى مباحث لا تفيدنا شيئا فى فهم القرآن وغايته الإلهية الكبرى من هداية البشرية وعقيدته السديدة من توحيد الله وعبادته والإيمان بالبعث والحساب والجزاء إما فى الجنة وإما فى النار، وأن وراء عالمنا المحسوس ملائكة وجنا وشياطين مفسدين.

والتفسير العلمى - بما تقدم - لا يستطيع أن يضيف لنا شيئا فى معرفة أصل الكون وأصل الحياة، وحقا يقول ربُّ العزة عن الناس: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[1] ويستدل مرارا على إعادة خلق الناس يوم القيامة بخلقهم الأول وخلق السماوات والأرض كما فى آخر سورة يس:

﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2]

خالق كل شىء وموجده بالأمر التكوينى، يقول لأى شىء ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[3] وبه خلق الأكوان جميعا وكل ما فى الوجود.

والقرآن الكتاب الإلهى الوحيد الذى يضع الكون بنظامه وتدبيره المحكم الدقيق أمام عقل الإنسان ليؤمن عن يقين بأن له إلها واحدا صنعه عن قدرة ربانية عظيمة. وقد مضى المسلمون - منذ عهد الصحابة - يستجيبون لله فى

---

(١) سورة الكهف الآية ٥١.

(٢) سورة يس الآيات ٧٨ ، ٨١.

(٣) سورة البقرة الآية ١١٧.

دعوته لهم أن يتأملوا فى ملكوته وخلقه للسماوات والأرض وما أودع فيهما من صنعة عجيبة تدل على قدرة عظيمة لا تحدها حدود ، حتى تمتلئ قلوبهم إيمانا به وتمجيدا لما كفل للكون من أنظمة محكمة. وإن مداومة التأمل فى الكون لتشبه العبادة لخالقه، مما جعل الرسول يقول لا عبادة كالتفكير فى الكون وما فيه من عجائب الخلق.

الشاطبى ورفض التفسير العلمى

لم يفكر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعون أن القرآن يحمل علوما إنما الذى فكر فى ذلك علماء الأمة منذ القرن الخامس الهجرى، مما فتح الأبواب للتفسير العلمى الواسع. وقد حمل الشاطبى أبو إسحاق بن موسى الأندلسى (ت ٧٩٠هـ) حملة عنيفة فى كتابه الموافقات على هذا الاتجاه فى تفسير القرآن مقدما لذلك بأن العرب فى عصر الرسول كانوا أمة أمية وأن كثيراً من الناس تجاوزوا الحد فى الدعوى على القرآن ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وعلم حساب الجمَّل وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها. وكان السلف الصالح من الصحابة والتابعين ممن يليهم أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ولم يبلغنا أن أحدا منهم تكلَّم فى شىء من هذا المدَّعى (يريد التفسير العلمى) سوى ما ثبت فيه من أحكام التكليف (يريد فروض الصوم والصلاة والحج والزكاة) وأحكام الآخرة (من البعث والحساب) وما يتصل بذلك. ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا إلا أن ذلك لم يكن، فدلَّ على أنه غير موجود عندهم، وهو دليل على أن القرآن لم يُقصد فيه تقرير لشىء

مما زعموا .. وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[1] وقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[2] ونحو ذلك وبفواتح السور و (علم الجمل الذى سموه علم الحروف وهى مما لم يعهد عند العرب) وما نقل عن الناس فيها، فأما الآيتان فالمراد بهما عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد (أى أن المراد بشىء من أمور الدين كما أسلفنا فى غير هذا الموضع). قال الشاطبى: أو المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فى قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ وأما فواتح السور (وهى الحروف المقطعة فى أوائلها مثل آلم) فقد تكلم الناس فيها بحساب الجمل الذى تعرَّفوه من أهل الكتاب، وهى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله. ولم يدعِ ذلك أحد من الصحابة والتابعين فلا دليل فيه على ما ادعوا من حساب الجمل. ويجب الاقتصار على ما أودع فى القرآن من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو فيه تقوَّل على الله ورسوله.

والشاطبى محق فى معارضة التفسير العلمى عند الأسلاف واحتجاجه فى ذلك واضح، لأن القرآن نزل على الرسول والعرب، وهم أمة أمية لم تدرس العلوم ولا عرفت قوانينها، وأيضا لم تدرس علم الفلك ونظرياته القائمة على الفرض والتخمين. فحملُ الآيات القرآنية عليها لا يستقيم.

وهذا الإنكار الواضح للشاطبى للتفسير العلمى لم يقفه، فقد ظل قائما عند أمثال الطبيب الإسكندرانى الذى ذكرناه فيما أسلفنا من الحديث وتوسع فيه الشيخ طنطاوى جوهرى، حتى ليبلغ تفسيره خمسة وعشرين مجلدا. وقلت إن تفسيره يحجب عنا القرآن ويجعلنا ننسى أنه كتاب هداية لعقيدة صحيحة

---

(١) سورة النحل الآية ٨٩.

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨.

بما تحمله من عبادات الله والأخلاق الحميدة والمعاملات العادلة ، وهو يحمل معها غيبيات كثيرة عن الملائكة والجن والشياطين والبعث والحساب ونعيم الجنة وعذاب النار، ولا يملك المسلم إزاءها إلا الإيمان بها.

وكثيرون يقولون: إن الله حشد فى القرآن عشرات الآيات الكونية بل مئات، ومن واجب المسلم أن يفهمها فهما دقيقا حسب معطيات العلم فى كل عصر، لا على طريقة الرازى والجوهرى فى حشد المواد العلمية فى التفسير دون حاجة ، بل على بيان الصلات الدقيقة بين الآيات الكونية وما جدَّ فى العلم من نظريات فى خلق الكون، ويقولون: إن الله أمرنا بتحصيل المعرفة وقال إن حواس الإنسان مسئولة عن كشفها: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[1] ودعا إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض وفى بدء الخلق للإنسان مع تدبر آياته الكونية وما أبدع فيها من نظم، وحقا أنها تصور قدرة الله العظمى، وحقا أيضا أنه من الممكن توجيهها مع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق الكون، مع عدم التطرف فى هذا التوجيه والتسليم المطلق بأن القرآن ليس كتاب علم وأنه لم ينزل على الرسول لتبليغ حقائق علمية.

وإنما أقول ذلك حتى لا تتحول الملاءمة بين آيات الله الكونية ومعطيات العلم الحديثة عن حقائقها الكونية إلى بحوث فى نظريات مطولة فى أصل الكون ونشأته وفى أصل خلق الإنسان وقد أشار الله فى سورة الأنبياء إلى أن السماوات والأرض كانتا جسما متلاصقا واحدا ثم انفصلتا فى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾[2] أو جسما واحدا متلاصقا فى نشأة الكون، ثم يقول الله ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ أى فصلناهما بالأمر

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠.

الإلهى "كن" ونكتفى بهذا الفهم الواضح للآية، ولا داعى لإضافة حدوث انفجار فى الكون ترتب عليه هذا الانفصال. وفى سورة فصلت بعد قول الله إنه خلق الأرض فى يومين وقدر لها أقواتها فى أربعة أيام ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1] أى أنهما استجابا إلى مشيئة الله فى تكوينهما عن طاعة. والدخان: ما يتصاعد من الوقود عند اشتعال النار فيه. وهو تصوير إلهى لما كانت عليه السماء فى بدء الخلق للكون وأنها كانت مثل الدخان، وفى الحديث النبوى أن الكون كان عماء أى ظلاما واستحال جزء من هذا الظلام أو هذا الدخان سماءً، وجزء ثان استحال أرضا.

وفى رأيى أن هذا الفهم الظاهر للآية القرآنية وسابقتها يكفى دون حاجة إلى جلب نظريات الفلكيين فى أصل الكون ونشأته إلى تفسير القرآن، لأن هذه النظريات تقوم على فروض وظنون غير مؤكدة، وصدق الله إذ يقول عن البشر: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[2]. ففيم إذن الاتساع فى تفسير الآيات الكونية فى القرآن بنقل ما يردده الفلكيون من فروض واحتمالات عقلية إلى التفسير وإثقاله بمباحث غير يقينية متناسين أن القرآن كلام الله، وأن الآيات الكونية مهما كثرت فيه لإيراد بها نقل الحقائق العلمية المبثوثة فى الكون إلى الناس إنما يراد بها التأمل فى ملكوت السماوات والأرض، وأن للكون إلها خلقه، بحيث أصبح كل ما فيه معداً لأداء وظيفته فى نظام مطرد، يطّرد فيه الأفلاك والكواكب ومسيرة الشمس نهارا والقمر ليلا. وقدَّر للإنسان

---

(١) سورة فصلت الآية ١١.

(٢) سورة الكهف الآية ٥١.

ولكل كائن فى الأرض أحوال وجوده وبقائه، وسخر للناس كل ما فى السماء والأرض من أفلاك وبحار وأنهار وجبال ووديان ودواب لينتفعوا بها أكبر نفع دون أى حاجة إلى علوم الفلكيين ونظرياتهم، فقد ترك الله اكتشاف قوانينها الفلكية للإنسان الذى حضه على الاجتهاد العقلى فمثلها فى ذلك مثل قوانين جميع العلوم.

وحرى بى أن أشير إلى أن التفسير العلمى للآيات القرآنية ينقضه نقضا أن أصحابه يفسرون كلام الله الثابت الراسخ بحقائق العلم المتطورة والمتغيرة من عصر إلى عصر، والقرآن ليس كتاب علم وحقائق علمية، إنما هو كتاب للهداية الربانية والدعوة إلى عقيدة إلهية، قوامها الصلاة والصوم والزكاة والحج والإيمان بغيبيات كثيرة من مثل الملائكة والجن والبعث ويوم القيامة وكل ما فيه من الحساب والجزاء والنعيم والعذاب. وكل ذلك هو جوهر عقيدتنا، ونحن نؤمن به دون حاجة إلى الوقوف على نظريات علم الهيئة وقوانين غيره من العلوم، وهو ما يجعلنا نذهب إلى أن ما ذكره الغزالى فى حمل القرآن للعلوم، مما عرضنا له فى الحديث عن الإعجاز العلمى محل نظر إلى أبعد حد، إذ نراه يقول فى كتابه "جواهر القرآن" إن القرآن البحر المحيط الذى يتشعب منه علم الأولين والآخرين، ثم يذكر ما يتشعب منه من العلوم اللغوية والدينية، ويقول إن وراءها علوما كثيرة تتشعب منه، ويريد بها علوم الأوائل، مثل علم الطب وعلم الفلك، وعلم هيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، وعلم السحر والطلسمات. ثم يذكر أن وراءها علوما لايخلو العالم ممن يعرفها، ولعله يريد العلوم الطبيعية والرياضية ، ثم يقول إنه توجد أصناف من العلوم لم تخرج إلى الوجود فى مقدرة الإنسان الوصول إليها، وعلوم أخرى حظيت بها الملائكة، وينتهى إلى أن فى القرآن مجامع علوم الأولين والآخرين.

وعلى هذا النحو بالغ الغزالى فى تصور ما ذهب إليه من الإعجاز العلمى للقرآن وحمله لجميع العلوم، وبالغ مثله جميع أصحاب التفسير العلمى للآيات القرآنية ممن جاءوا بعده من الأسلاف والقرآن لم ينزل على الرسول لنشر العلوم أو نشر علم بعينه مثل علم الهيئة، إنما نزل لنشر عقيدة إلهية ترتكز على الإيمان بوحدانية الله وبملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، كما ترتكز على الدعوة لعبادة الله وأداء فروضه والتمسك بمعاملات عادلة رشيدة وأخلاق حميدة كريمة.

ومعنى ما تقدم أنه من الصعب قبول الإعجاز العلمى للقرآن بالوجه الذى فسَّره به الغزالى، وما تفرع عنه من التفسير العلمى، وأولى من ذلك أن يوجَّه الإعجاز العلمى للقرآن توجيها آخر أكثر قبولا وهو نقله الأمة العربية من أمة بدوية إلى أمة ذات علم عظيم. والله يشيد بالعلم فى أول آيات نزلت منه قائلا لرسوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] ويشيد الله فى القرآن بالعلم والعلماء مرارا وتكرارا بمثل قوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] وقوله لمحمد وأمته: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[3] ويقرن الله العلماء إليه وإلى الملائكة فى الشهادة بوحدانيته فى قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾[4] وهو تشريف عظيم للعلماء والعلم. ويشيد الرسول بالعلم ويدعو إلى طلبه فى أحاديث كثيرة من مثل قوله "من سلك طريقا يبتغى فيه علما سهل الله له طريقا

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ، ٥.

(٢) سورة الزمر الآية ٩.

(٣) سورة طه الآية ١١٤.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨.

إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع: وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب".

ونرى الله فى سورة التوبة يحرض المسلمين على الجهاد فى سبيله وسبيل دينه الحنيف، ويقرن ذلك بالحض على جهاد فريق منهم فى التفقه بالدين الحنيف وشريعته وتعاليمها ليكونوا هداة لقومهم الذين اعتنقوا الإسلام. يقول تقدس اسمه ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾[1] أى ليخرجوا للغزو والجهاد فى سبيل الله ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ وبذلك جعل التفقه فى الدين وتعليم المسلمين مساويا للجهاد الحربى فى سبيل الله، ولا يقل عنه ثوابا وشرفا. ويقول الرسول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين. والتفقه: فهم ما يخفى من أمور الدين عن طريق مدارسة أحكامه الشرعيَّة، مما جعل المدينة فى عهد الرسول وبعده تتحول إلى دار تعليم كبرى لأوامر الشريعة الإسلامية ونواهيها. وكان الرسول المعلم الأول والأكبر للمسلمين، وكان يبعث ببعض تلاميذه من الصحابة إلى مدن الجزيرة العربية وقبائلها يعلمون المسلمين الجدد شريعة دينهم فى العبادات وأداء فروضها الدينية والمعاملات القويمة والسلوك المستقيم الخلقى والاجتماعى فى الأسرة والأمة .

وفتح المسلمون – فى عهد أبى بكر وعمر – العراق وإيران والشام ومصر وتونس وكان كل بلد يفتح فى هذا العالم الواسع يبنى فيه مسجد، ويتجرد فيه بعض العرب الفاتحين لدعوة أهل البلاد المفتوحة للدخول فى الإسلام وتعليمهم لغته وشريعة دينهم وما يحملها من القرآن. وبذلك انبثقت حركة تعليمية واسعة فى

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢.

البلدان المفتوحة لتعلم العربية حتى تنطق نطقا سليما آيات القرآن الكريم فى أداء فروضها الدينية، ولتتعلم علوم الشريعة من الفقه وتفسير القرآن والحديث النبوى .. وطلب العرب – بما غرس القرآن فيهم من الشغف بالعلم – ما عند الأمم المفتوحة من ضروب العلم والمعرفة، وأخذت تنشأ حركة ترجمة لها، وسرعان ما تمثلوها وأسهموا فيها، وقادوا العالم علميا من القرن الثانى للهجرة / الثامن الميلادى إلى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى.

والقرآن هو الذى نقل العرب هذا الانتقال الكبير من أمة بدوية أمية لا تقرأ كتابا إلى أمة قارئة، بل إلى أمة عالمة تتقن العلوم الشرعية، وتضع العلوم اللغوية، وتسهم إسهامات كبرى فى علوم الأوائل الرياضية وغير الرياضية من مثل الكيمياء والطب. وهو إعجاز أو إنجاز عظيم للقرآن الكريم : أن ينقل أمة بدوية أمية لا يعرف الكتابة منها إلا فئة قليلة بمكة بسبب التجارة ووراءهم جموع فى المدينة ومدن الحجاز واليمن والخليج العربى وقبائل نجد والشمال الشرقى والغربى كل هذه الجماهير الغفيرة كانت أمية، ويصور أميتها عمل الرسول فى المدينة بعد غزوة بدر وأسر سبعين من صناديدها.

فإن الرسول تعهد لمن يعرفون الكتابة منهم أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة فترد حريته إليه ويصبح طليقا، وكان ممن علموهم الكتابة زيد بن ثابت الصحابى العالم الجليل. وأكب العرب فى مدنهم وقبائلهم يتعلمون الكتابة، ليتلقوا بها القرآن، واستحالوا أمة كاتبة بعد أن كانوا أمة أمية، ولم يكن لهم كتاب فأصبحوا أهل كتاب دينى عظيم يكتبون آياته ويحفظونها ويتدارسونها فى كل مكان.

أليس ما أحدثه القرآن للعرب من هذا التحول العظيم إلى الكتابة والعلم وأن يصبحوا أمة عظيمة ذات كتاب دينى باهر، هو القرآن، تعكف على

مدارسته ويهديها إلى علومها الشرعية من الفقه وتفسير الآيات القرآنية. أليس ذلك يعد أعجازا علميا للقرآن لا يماثله إعجاز. وليس ذلك فقط، فقد غرس القرآن فى نفوس العرب وقلوبهم شغفا بالعلم ومدارسته، فإذا هم يضعون علومهم الشرعية واللغوية، وإذا هذا الشغف بالعلم يدفعهم إلى محاولة التعرف على ما كان لدى الأمم القديمة المفتوحة وغيرها من العلوم ويتمثلونها ويشاركون فيها مشاركات كبرى، ويقودون العالم علميا ستة قرون متوالية. أليس ذلك كله بفضل القرآن وفضل ما نفث فى قلوب العرب وعقولهم من الشغف الشديد بالعلم مما يستحق أن يسمى إعجازا علميا. وهو إعجاز علمى لا نظير له. إذ حوَّل أمة بدوية لم تخط كتابا إلى أمة ذات تاريخ مجيد فى العلم وحقائقه العلمية.